الفصل السادس

المقاومة والتواضع والنفي

ظل رؤساء العشائر يستهزئون بمحمد ﷺ ويشجعون الآخرين على انتقاده وإهانته، كان يُطلب من الرجل الذي ادعى النبوة أن يأتي بالمعجزات والأدلة المحسوسة، وكان الناس يعترضون على اختيار الله لرجل لا يتمتع بسلطة سياسية، ويمشي في الأسواق دون أي علامة تميزه عن غيره من الرجال، فكانوا يسخرون من الرجل ومزاعمه بقدر ما كانوا يسخرون من الرسالة.

ومع ذلك، وكما رأينا، فقد صمد النبي ﷺ لكل ذلك. وعندما جاء أحد زعماء قريش، وهو عتبة بن ربيعة، ليعرض عليه المال والجاه، كان رد النبي ﷺ قبل كل شيء أن استشهد بالقرآن مطولاً:

﴿ حمٓ ١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ
ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ
أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا
تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا
عَٰمِلُونَ ٥ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ
وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ٦ ٱلَّذِينَ لَا
يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

obeikandl.com

﴿...وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ
لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ
رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ
فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾[2].

ومضى النبي ﷺ في تلاوته حتى بلغ الآية (38) التي تذكر أولئك الذين يسجدون، وعندما وصل إلى تلك الآية، سجد تعظيماً للواحد الأحد. كان عتبة قد جاء ليعرض عليه الثروة وجاه هذه الدنيا، فأصبح يواجه رجلاً يسجد بدافع من إيمانه بالحي الذي لا يموت ويعبر بذلك عن رفضه الواضح للعرض الذي قدم له للتو، وقد تأثر عتبة تأثراً عظيماً جراء شكل الرسالة القرآنية ومحتواها، وعاد إلى قومه واقترح عليهم عدم معارضة هذه الرسالة، لكنهم كانوا مقتنعين أنه قد سُحِر جراء عظمة تلك الكلمات ولم يعيروا اهتماماً لنصيحته وواصلوا عمليات الاضطهاد.

الجهاد

أما النبي ﷺ فقد صبر، وكلما هاجمه خصومه كان يتلو القرآن عليهم ليجيبهم ويحمي نفسه ويقاوم، وهذا ما علمه الوحي في هذه الآية، التي كانت المرة الأولى التي وردت فيها كلمة «الجهاد» في القرآن:

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾[3].

أمام مختلف أنواع الضغوط، من أخفها إلى أكثرها عنفاً، تلقى محمد ﷺ آية دلته على طريق المقاومة ووسيلتها التي

سوف يقوم بها ـ «الجهاد» ـ إن ما نجده هنا هو المعنى الأول والأساسي لمفهوم الجهاد المشتق من «جاهد» أي «بذل الجهد»، ولكن أيضاً، في هذا السياق، «المقاومة» (أي مقاومة الاضطهاد والقمع). فالله يأمر رسوله بأن يقاوم سوء معاملة قريش له بالاعتماد على النصوص القرآنية التي هي في الواقع سلاحه الروحي والفكري ضد العدوان، فالذين يسخرون ويوجهون الإهانات ويقومون بالإذلال والهجوم والتعذيب والقتل، والذين يطلبون المعجزات والبراهين، يجيبهم النبي ﷺ دائماً بسلاح القرآن ودرعه، وهو الذي يشكل بحد ذاته -كما رأينا- المعجزة والبرهان، فالنصوص القرآنية تفجر القوة الحقيقية في الناس، التي تنطوي على القدرة على مقاومة أعمال الاضطهاد في هذا العالم وتتغلب عليها، لأنها تدعو إلى الحياة التي تتجاوز أوهام هذه الحياة: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾[4].

إن جوهر مفهوم الجهاد في سبيل الله محدد كلياً في هذا الاستعمال الأول لتلك الكلمة في سورة «الفرقان». إنه تمييز، من خلال معجزة الوحي الثنائي (الكون والنص القرآني)، لوجود الواحد الأحد، ومقاومة أكاذيب وإرهاب الذين لا تسيرهم سوى الرغبة في حماية مصالحهم وسلطاتهم أو ملذاتهم، إن الموقف الأول الذي يقتضيه هذا هو الترفع:

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ

ٱهۡتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ
أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى ﴿٣١﴾ ﴾[5].

وللفرقـان أيضاً بُعد أخلاقـي آخر، كما تدل عليه الآيات السابقة إذ إن ما يميز المؤمن في هذه الحياة لا يقتصر على الإيمان فحسب بل هو أسلوب في الوجـود والسلوك، وقد تسلح النبـي ﷺ وصحابته بهذه المعرفة في أول الأمر وحاولوا نقل رسالتهم بحرية وكانوا يتجنبون في الوقت نفسه المواجهة. لكـن زعماء قريش لم يعجبهم ذلك، وصعّـدوا أعمال الاضطهاد فيما كان الوحـي ينزل المرة تلو المرة بتعاقب سريع، وقد تـذرع المسلمون، شأنهم في ذلـك شأن النبـي ﷺ، بالمقاومة ـ بالجهاد ـ مذكريـن الناس بوجود الله الواحـد الأحد وبالحياة بعد هذه الحياة وبيوم الحساب وبضرورة الأعمال الصالحـة، وكان القرآن دائماً سـلاح بصيرتهم الروحية ودرعهم في وجه الأعمال الوحشية التي كانوا يتعرضون لها.

غـير أن هذا الاضطهاد بلـغ من الشدة والاستمـرار بحيث أصبح هذا الجهـاد صعباً في بعض الأحيان، ففي أحد الأيـام جاء بعض المسلمين إلى النبـي بينمـا كان مستلقياً في ظـل الكعبة وسألـوه: «ألا تستنصـر لنا، ألا تدعـو الله لنـا؟» فقال النبـي ﷺ: «كان الرجل فيمن قبلكـم يحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصـده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشـاط الحديد، ما دون لحمه من عظم أو عصـب فما يصـده ذلك عن دينـه، والله ليُتِمَنَّ هـذا الأمر حتى يسير الراكـب من صنعاء إلى حضرمـوت لا يخـاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون!»[6].

لـذا فقد كان عليهـم أن يصبروا ويتحملـوا ويثابروا ولا ييأسـوا أبداً من الله ومشئيتـه، كان النبـي ﷺ يعلم أصحابه الربـط الصعب بين الثقة بالله والألم، وقـد أتاحت معاناة الألم المادي والمعنوي بلوغ مرحلة الإيمان التي يقبل فيهـا المؤمن الشدائـد، والتي يمكن أن يشك المؤمـن بنفسه دون الشك بالله، وتأتي قصة عمار رضي الله عنه الشاب لتكون درساً للمسلمين: فقد رأى بأم عينيه أمه، ثـم أباه، يُقتلان لأنهم رفضوا إنـكار الله. ثم تعرض عمار رضي الله عنه ذاته للتعذيب بأقسـى طريقة، وفي أحـد الأيام، بينمـا كان يُعذب، ولم يعـد يستطيع تحمل المزيـد من العذاب، أنكر الله ومدح آلهـة قريش. فأطلقه معذبوه، لكن شعوراً بالذنب سيطر عليه وأخذ يعذبه ولم يستطع التخلص منه، حيث إنه كان على قناعـة بـأن إنـكاره لا يمكن التكفير عنـه. فذهب إلى النبـي ﷺ وهو يبكي، وأنبـأه بسبب ما يشعر به من بؤس وشقاء وبشكوكـه بقيمته ومصيره، فسأله النبـي ﷺ عن معتقداته الصحيحة، فأكد له عمار بأنها لم تتغير وأنها ثابتة ومتينـة، وأنـه لا يجد في نفسه أي شك بإيمانه بـالله ومحبته له، فهدَّأ محمد ﷺ من روع عمار وطمأنه، حيث إنه فعل ما بوسعه، فلا حاجة لأن يلوم نفسه. بل نزل الوحي مؤيداً لذلك: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾[7]، وقال لعمار بأنه إذا تعرض ثانية لتعذيب مماثل لا يستطيـع تحملـه، فإن بإمكانه من أجل إنقاذ حياتـه أن يقول بفمه ما يكون معذبوه يريدون سماعه، ويثبت على إيمانه بالله وصلواته في قلبه.

وهكـذا فقـد كان النبي ﷺ يتفهـم الموقفين: موقف الذيـن لم ينكروا إيمانهم أبداً حتى عندما كلفهم ذلك حياتهم، وموقف الذين تفادوا الموت، عنـد تعرضهـم للتعذيب الـذي لا يطاق، بـأن أنكروا إيمانهـم بأفواههم،

لكنه ظل ثابتاً في قلوبهم وعقولهم، بعد ذلك أصبح العلماء يعتمدون على هذا المثال، بين جملة أمور، في القول بأنه يمكن للمسلمين في حالات بالغة الخطورة تكون فيها حياتهم معرضة للخطر على أيدي قوة ظالمة، أن يقولوا بأفواههم ما يريد معذبوهم أن يسمعوه منهم، وهذا هو معنى «التُقّية» (التي تعني عملية التظاهر بشيء بخلاف ما في قلوبهم وعقولهم) وأصبحت جائزة، كما هي هنا في حالة عمّار، ولكن فقط حين يكون الفرد مضطراً للمحافظة على حياته في حالة بالغة الخطورة تنطوي على تعذيب لا يطاق، وسوف نرى أنه في أي موقف آخر، كان المسلمون يقولون الحقيقة، بصرف النظر عن الثمن.

المخاطرة

لم تكن مقاومة قريش موجهة إلى مجرد رجل ورسالة، ففي واقع الأمر، لو أن جميع رسل الله واجهوا الموقف نفسه - المعارضة والحقد من جزء كبير من جماعتهم - فإن ذلك يعود إلى أن ما تتضمنه الرسالة التي أتوا بها كانت تنطوي على ثورة جذرية في نظام المجتمع.

يورد القرآن الكلام الذي كان يواجه به الرسل، في عصور مختلفة، عندما انطلقوا لتبليغ الرسالة إلى أقوامهم، كان الرد الأول في معظم الأحيان رفضاً للتغير والخوف من فقد السيطرة، كما جاء في الرد على موسى وهارون من جانب قوم فرعون: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [8]. إن فهم هذه العلاقة بالذاكرة والأجداد والعادات مسألة أساسية لفهم كيفية رد

فعل مختلف الأقوام عند مواجهتهم بالتحولات التي كان لا بد أن تحدث على أثـر اعتناق معتقد جديد، وبالتالي، وجوداً جديـداً في جسم المجتمع، فرد العقل كان دائماً انعكاسياً وانفعالياً، لأن المخاطرة هي بالهوية والاستقرار اللذين يعتمد عليهما المجتمع المعني، وقد أحدث النبي محمدﷺ، برسالته والتطـور الـذي كان يـزداد وضوحاً في مجتمعـه، ردود الفعـل ذاتها بالغة الشـدة، الأمر الذي جعل القرشيين، الذيـن اعتراهم الخوف مما بدا أنه يهدد خصائصهم، يعارضونه بوحشية ودون هوادة.

مـن البدهي أن قضية السلطـة مسألة حاسمة: فجميـع الأقوام الذين جاءتهـم الرسل كانوا يعتقـدون في أول الأمر أن الرسـل لم يكونوا يسعون إلا إلى السلطـة والجـاه، ولم تكن حالة محمد ﷺ تشذ عن هذه القاعدة، فمن البدهي أن الناس ينطلقون من وجهة نظرهم في محاولة تفسير وفهم نوايـا الرسل ومقاصدهـم، ففي النظام البشري، لا يقـوم المرء بالإطاحة بالتقاليـد، وبالتـالي بنظـام اجتماعي وسياسـي، ما لم يكـن يسعى وراء السلطـة، إن منطـق العلاقـات الإنسانيـة يفرض هذا التفسـير. وهذا ما يفسـر شكوك وصمم الزعمـاء الذين يواجهون رسالة تنطـوي على نتائج صريحـة تؤثـر على أولئك الزعمـاء، رغم أن محتواها بحـد ذاته أبعد ما يكون عن تلك الاعتبارات.

ودعـوة محمـد ﷺ إلى الاعـتراف بإله واحـد، والتخلي عـن الأوثان السابقة، والدار الآخرة بعد الحياة الدنيا، وإلى الأخلاق والعدالة، أطلقت ثـورة حقيقيـة في عقول النـاس وفي المجتمع على حد سـواء، ولم يكن يهم كثـيراً، بالنظـر لكافة المعطيات، ما إذا كان يسعـى وراء السلطة لنفسه أو

لأي طـرف آخـر؛ إن ما ظل بدهياً بحد ذاته هـو أن عكس المنطلقات الذي انطوت عليه رسالته، التي كانت تتوجه إلى الدار الآخرة، قد زلزل الأسس التي تستند إليها السلطة الدنيوية.

وقـد رأى المؤمنون الجـدد أن الإيمان بإله واحـد وإدراك مفهوم الأبدية فضـلاً عـن التعاليـم الأخلاقية هـي عناصـر تحررهم الروحـي والفكري والاجتماعـي، وقد كانـت نظرة قريش واضحـة وفي محلهـا، فالنتائج التي تنطوي عليها معارضتهم الجذرية لرسالة تحرر جذري كانت بالغة الخطورة وتنطـوي علـى تداعيـات جوهرية لمصيرهـم، فقـد أحسـوا، دون أن يكون بإمكانهم دائماً سماع أو فهم، مغزى التأكيد الجوهري على الإيمان بالواحد الأحد، الذي يعبر على الفور عن تغيير صميمي وتحول عام للنظام.

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾[9].

هذه الآية تشير إلى وجود حدود:

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾[10].

أسئلة:

حـارت قريش فيمـا يمكن أن تعمله لمنع انتشـار رسالة محمد ﷺ. فقـرر زعماؤها إرسـال وفد إلى يثرب لسؤال علمـاء الدين اليهود عن

طبيعة الوحي الجديد وصدقه. وكان يعرف عن يهود يثرب بأنهم يؤمنون بفكرة الإله الواحد، وكثيراً ما كان محمد ﷺ يشير إلى موسى عليه السلام، نبيهم، لذا فهم أفضل من يعبر عن رأي أو حتى من يقترح إستراتيجية لمساعدة قريش.

عندما استشيروا بشأن النبي الجديد، اقترح الحاخامات بأن يسأله المكيّون ثلاثة أسئلة ليتبين لهم ما إذا كان ما يقوله وحياً في الواقع أو أنه محتال، كان السؤال الأول عن قصة مجموعة من الشبان الذين نفاهم قومهم؛ والثاني عن رحّالة عظيم الشأن بلغ أطراف الكون؛ والثالث كان طلباً مباشراً بتعريف الروح، غادر وفد قريش وهم مقتنعون بأن لديهم الوسيلة التي تمكنهم من إيقاع محمد ﷺ في فخ. فلما عادوا إلى مكة ذهبوا إليه وطرحوا عليه الأسئلة الثلاثة.

فأجاب على الفور تقريباً: «أخبركم بما سألتم عنه غداً»(11).

لكن جبريل لم يظهر في اليوم التالي، ولم ينزل وحي على محمد ﷺ. كما أن جبريل لم يأت في اليوم الذي بعده، أو خلال الأربعة عشر يوماً الآتية بعد ذلك شعر زعماء قريش بالارتياح بعد أن تأكدوا بأنهم استطاعوا أخيراً أن يثبتوا نفاق «النبي المزعوم» الذي عجز عن الإجابة عن أسئلة الحاخامات، أما محمد ﷺ، فقد شعر بالحزن، ومع مرور الأيام، كان خوفه يزداد من أن يكون الله قد تخلى عنه: ودون أن يشك في الله، فقد عاد له الشعور بالشك بذاته الذي زادته سخرية خصومه منه، وبعد أسبوعين جاءه الوحي مع الإيضاح:

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾(12).

هـذه الآيـات كانت تنطوي مرة أخـرى على عتاب غيـاب ودرس: فقد ذكرت النبي ﷺ بأن مركزه ومعرفته يعتمدان على ربه، على الله الواحد الأحـد الـذي له الملك وحده، وأنـه يجب ألا ينسى ذلـك، هكذا يجب فهم عبـارة «إن شـاء الله»؛ فهـي تعبر عن الحـدود، عن شعـور بالتواضع من جانب الذي يتصرف وهو يعلم بأن الله وحده هو الذي بيده كل ما يحدث، بمـا يتجاوز ما باستطاعة المرء قوله أو فعلـه. وليست هذه الرسالة قدرية بـأي حـال: فهي لا تعني أنـه لا يجب على المرء أن يعمل، بـل على العكس، بأنـه يجب على المرء ألا يتوقف عن العمل وأن يكون دائماً مدركاً في ذهنه وقلبه لحدود القوة البشرية، فللمرة الثانية تعرض النبي ﷺ لعتاب العلي القديـر، فمهما واجه المـرء من شدائد، فإن قوتـه وحريته تتمثلان في أن يظل واعياً لافتقاره للخالق.

ولم تـأت الإجابات عن الأسئلـة التي وجهت إلى النبي ﷺ إلا بعد مدة من الوقت، وقد كان التأخير ينطوي على تناقض ظاهري.

حيث إنه جاء لتعزيز إيمان المسلمين، وإرباك الذين تحدوا النبي ﷺ: فعجـزه المؤقت عن الإجابة ثم الوحي الذي جاء بعد فترة من الوقت بَرْهَنَا علـى أن محمداً ﷺ لم يكـن واضع الكتاب الذي كان يتنزل عليه وأنه كان بالفعل يعتمد على مشيئة ربه.

أشارت الإجابة عن السؤال عن الروح مباشرة ـ بالطريقة نفسها التي تمت تذكرته بها بشأن واجب التواضع ـ إلى العلم الأسمى للواحد الأحد:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾[13].

أما بشأن القصتين (قصة أهل الكهف وذي القرنين) فقد وردتا أيضاً في السورة (18)، سورة الكهف، كانت القصتان تنطويان على الكثير من المعلومات والتفاصيل التي لم يكن بوسع قريش وحاخامات يثرب توقعها ولم يكن النبي ﷺ يعرف أي شيء عنها قبل نزول الوحي. وقد تضمنت السورة ذاتها قصة موسى عليه السلام الذي انساق في لحظة من النسيان والغفلة إلى القول إنه بالنظر لكونه نبياً فإنه «يعلم». فاختبره الله لاحقاً بأن واجهه بمن هو أكثر علماً منه، وهو الخَضِر الذي ورد ذكره في القرآن، والذي علمه كيف يفهم علم الله الأسمى، كما علمه الصبر وحكمة التواضع والامتناع عن طرح أكثر مما ينبغي من الأسئلة[14].

فمن تجربة موسى عليه السلام (الذي كان قليل الصبر) إلى تجربة محمد ﷺ (الذي نسي افتقاره إلى الله) فضلاً عن الدرس الذي تم تلقينه لجميع البشر (الذين لم يؤتوا من العلم إلاّ قليلاً)، كل ذلك يذكر المسلمين بهشاشتهم واحتياجهم إلى الله، مهما كان وضعهم، وهذا الدرس يتجلى في سورة الكهف، بعد ذلك كان النبي ﷺ يهيب بكل المسلمين قراءة هذه السورة كاملة كل يوم جمعة كي يتذكروا، في كل أسبوع، كي لا ينسوا أنفسهم وكي لا ينسوا الله.

الحبشة

ازدادت عمليات الإهانات والاضطهاد مع تتابع نزول الوحي. ولم تعد الآن تقتصـر على أضعف المسلمين بل تناولت أيضـاً رجالاً ونساءً كان مركزهم مـن شأنه أن يحميهـم، مثل أبي بكر رضي الله عنه. وكان محمـد ﷺ، الذي كان في حمايـة عمه أبي طالب، موضعاً للاستهزاء والسخرية، لكنه لم يتعرض إلى أذى جسدي، وبعد أن رأى محمد ﷺ أن الوضع في مكة يزداد سوءاً، اقترح علـى المسلمين ما يلي: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه»[15].

كان النبـي ﷺ يعني ملك الحبشة، النجاشـي، النصراني، الذي كان يلقـى الاحـترام من شعبـه ويعـدل بينهم[16]. فقـد أخذ بعض المسلمين يستعـدون للسفر وقام أخيراً عـدد من الأفراد والأسر بمغـادرة مكة سراً مهاجريـن الهجـرة الأولى: كان مجموعهم مئة شخـص، اثنين وثمانين أو ثلاثة وثمانين رجلاً ونحو عشرين امرأة.

حـدث هـذا في عام 615، بعـد خمس سنـوات من بداية نـزول الوحي وسنتـين من بدايـة الدعوة العامـة، كان الوضع قد أصبـح بالغ الصعوبة، إلى درجـة جعلت هؤلاء المسلمين يخاطرون بالذهاب إلى المنفى بعيداً جداً عن مكـة، وكان من بين المهاجرين عثمان بن عفان رضي الله عنه وزوجته رقية، ابنة النبي ﷺ، وأبو بكر رضي الله عنه، لكنه عاد حين قابل، وهو في طريقه، أحد وجهاء مكة الذي أجاره، كما كان بينهم أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ التي أصبحت لاحقاً زوجـة للنبي ﷺ، والتي وصلت إلينا مـن خلالها مختلف الروايات عن الهجرة إلى الحبشة.

وقد اكتشف زعماء قريش بعد برهة وجيزة أن بعض المسلمين ـ ومن المفارقات أنهم لم يكونوا الأضعف والأكثر تأثراً ـ قد غادروا مكة. ولم يطل بهم الأمر حتى عرفوا المكان الذي توجه إليه المسلمون. وكان ثمة أسباب تدعوهم للقلق بشأن تلك الهجرة: إذا استطاعت هذه المجموعة الصغيرة من المسلمين الاستيطان في مكان آخر، فإن ذلك سيعني حتماً أنهم سيشوهون سمعة أهل مكة وربما يثيرون العداء ضدهم أو أنهم قد يقيمون تحالفاً ضدهم مع ملك كانوا يعلمون أنه يشاركهم الإيمان بإله واحد، بعد بعض الوقت من ذهاب المسلمين، قرر زعماء قريش أن يرسلوا إلى النجاشي مبعوثين هما عمرو بن العاص وعبد الله بن رابية ـ رضي الله عنهما ـ لإقناعه بعدم منح حمايته لأولئك المهاجرين وبأن يبعدهم إلى مكة، ذهب المبعوثان إلى بلاط النجاشي يحملان الكثير من الهدايا التي كانا يعرفان أن وجهاء الحبشة يقدرونها جداً، فقاما بمقابلة الوجهاء فرداً فراداً وأعطوهم الهدايا وحصلا على تأكيدات بدعمهما عندما يقدم المبعوثان المكيان طلبهما للملك.

في مواجهة النجاشي

كان عمرو بن العاص وعبد الله بن رابية يودان لو أن الملك يوافق على إعادة المسلمين دون سماع دفاع المهاجرين، لكن النجاشي رفض قائلاً إن الذين اختاروه ليحميهم لهم الحق في عرض قضيتهم، فدعا إلى اجتماع يحضره المبعوثان من مكة ووفد من المهاجرين المسلمين، واختار هؤلاء جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، الذي كان يتصف بالحكمة وبالفصاحة ليمثلهم ويجيب عن أسئلة الملك، سألهم الملك عن سبب هجرتهم ولاسيما عن ماهية الرسالة الجديدة التي أتى بها النبي ﷺ. شرح جعفر للملك

المبادئ الأساسية التي نزل بها الوحي والمتضمنة في تعاليم محمد ﷺ وهي: الإيمان بإله واحد ونبذ عبادة الأوثان، والأمر بوصل ذوي القربى وقول الحق ومقاومة الظلم..إلخ، وأضاف جعفر أن قريشاً كانت تضطهد المسلمين بسبب هذه الرسالة، ولهذا قرروا اللجوء إلى الحبشة بجوار النجاشي الذي اشتهر بأنه حاكم عادل ومتسامح.

سأل الملك جعفراً رضي الله عنه إن كان معه نسخة أو إن كان يستطيع تلاوة نص من آيات الوحي الذي جاء به محمد ﷺ، أجاب جعفر بالإيجاب وأخذ يتلو بعض الآيات من سورة مريم:

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦
فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا
بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨ قَالَ
إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ١٩ قَالَتۡ أَنَّىٰ
يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ٢٠ قَالَ كَذَٰلِكِ
قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ
وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ٢١﴾ [17].

تأثر الملك ورجال البلاط بجمال النص الذي تُلي عليهم بالعربية، وازداد تأثرهم عندما تمت ترجمته لهم وفهموا أنه يبشر بمعجزة ولادة عيسى. قال النجاشي: «إن هذا والذي جاء به عيسى جاء من مشكاة واحدة»[18]. والتفت إلى مبعوثي مكة ليرفض طلبهما ويعلمهما أنه لن يسلم المهاجرين المسلمين وأنه سيظل يمنحهم ضيافة اللجوء.

obeikandi.com

خرج عمرو وعبد الله وهما يستشيطان غيظاً، لكن عمرو سرعان ما قرر أن يعود إلى النجاشي ليخبره عما جاء في هذه الرسالة الجديدة عن عيسى عليه السلام، وهو ما لا يتطابق على الإطلاق مع المعتقدات النصرانية. ففعل ذلك في اليوم التالي، وبعد أن أصغى له الملك أرسل يطلب جعفراً ووفده وطلب معرفة المزيد عما يقوله النبي ﷺ عن عيسى عليه السلام، كان المسلمون يدركون خطورة هذا اللقاء: إن شرح الفروقات بين الدينين قد تجعل النجاشي يعيدهم إلى مكة، ومع ذلك فقد قرروا الالتزام بنص الرسالة وشرح ما جاء فيها بصدق. وعندما سأل النجاشي «ماذا تقولون في عيسى ابن مريم؟» أجاب جعفر رضي الله عنه بلا مواربة «نقول ما علمنا نبينا: إنه عبد الله ورسوله وروحه وكلمته التي ألقاها إلى مريم البتول». ولم يتم التطرق إلى كونه «ابن الله»، فأجاب النجاشي بأن أمسك بعصا وقال: «إن عيسى بن مريم لا يزيد عما قلتم إلا بمقدار طول هذه العصا»(19). وقد تعجب رجال البلاط من جوابه وعبّروا عن ذلك بسعال خفي، لكن النجاشي تجاهلهم وأمر بعودة مبعوثي مكة ومعهما جميع الهدايا التي جاءا بها، وجدّد ترحابه بالمسلمين وأكد لهم بأنهم سيجدون الحماية والأمن في أرضه.

كانت تلك نكسة كبيرة لأهل مكة، الذين سارعوا إلى الانتقام بتصعيد أذاهم للمسلمين بعد عودة المبعوثين.

أما جعفر رضي الله عنه وجماعته، فقد وجدوا بلداً نصرانياً، رغم كونهم منفيين فيه ولم يكونوا على دين أهله، إلاّ أنهم لقوا ترحاباً وحماية وتسامحاً فيه. كانوا قد قرروا قول الحق: في أشد اللحظات خطورة من مواجهتهم مع النجاشي، فلم يحاولوا تفادي الإجابة عن السؤال ولا كذبوا بشأن ما

قالـه محمـدﷺ عن عيسى بن مـريم عليه السلام. فقد غامـروا في الواقع بأن تتـم إعادتهـم إلى مكة وتسليمهـم، لكنهم لم يكونـوا في وضع عمّار رضي الله عنه، الـذي أنكـر دينه جراء التعذيـب لإنقاذ حياته، ففي هـذه الحالة، وعلى الرغـم ممـا كان ينطوي عليه الموقف من أخطـار لم يكن أمامهم مهرب: لقد حافظ المسلمون على معتقداتهم، التي أعربوا عنها بصدق وأمانة، لم يكن لديهم خيار آخر سوى قول الحقيقة، وهذا ما فعلوه.

على أنـه تجدر الملاحظة بأن جعفراً رضي الله عنه بدأ بذكـر نقاط التشابه بين الدينـين السماويين، وقد بينت الآيات الأولى التي تلاها بوضوح أن مصدر الرسالـة هو ذاتـه وأن المسلمين، في قبولهم للوحي الجديـد، إنما يعبدون الإله ذاته الذي يعبـده النصارى ويعترفون بنبيهم. كان المبعوثان من مكة همـا اللذان حـاولا إظهار الاختلافـات بغية إثارة المشـكلات، لكنَّ جعفراً رضي الله عنه سـارع إلى القيـام بجرأة بشـرح رسالة دينه بما فيهـا من خصائص واختلافات، وكان مجرد وجود المسلمين في الحبشة رسالة أخرى للنصارى وهـي أن المسلمين يعترفون من حيث الأساس بأن النجاشي صاحب مبادئ وعـادل وأن هـذا هو مـا دعاهم إلى اللجـوء في أرضه، لم يكـن النجاشي مسلمـاً، لكنـه أدرك تماماً المعنى المـزدوج، الصريح والضمنـي، للرسالة التي جـاء بها المسلمـون: إلههم هو إلـه النصارى نفسـه، بصرف النظر عن الاختلافات بـين نصوصهم ومعتقداتنا؛ أما قيمهم المتعلقة بالاحترام والعـدل فهي ذاتها بصرف النظر عن الاختلافـات بين نصوص الدينين. وهكذا فقد سمع الملك هؤلاء الذين يؤمنون بدين آخر ورحب بهم.

بعـد ذلك اعتنق النجاشـي الإسلام وظل على اتصـال دائم مع النبي محمـد ﷺ. وقد مثلـه في مناسبة عرسـ، وصلى النبـي ﷺ عليه صلاة الغائب عندمـا علم بوفاته، مكث معظم المسلمين المنفيين في الحبشة فيها حـوالي خمس عشـرة سنة، حتى غزوة خيـبر في (630)، حين انضموا إلى النبي ﷺ في ذلك الوقت في يثرب، التي كانت قد أصبحت حينئذ المدينة، وعاد آخرون إلى مكة قبل ذلك عند سماعهم لأخبار إيجابية من مكة (مع أن بعضـاً منهم عادوا ثانية إلى الحبشة)، لكـن ما من أحد منهم لقي أي متاعب في مملكة النجاشي.

openkandil.com